ملحق النصوص

مولد والدة الإله الطاهرة[1]

I- في قصة أسباط إسرائيل الاثني عشر، شخص يدعى يواكيم كان يقدم للإله تقدمات مضاعفة وهو يقول: فليكن خير مما أملك للشعب كله، ولتكن لي مغفرة ربي ورحمته. وحل اليوم العظيم، يوم الرب[2]، الذي يقدم فيه بنو إسرائيل تقدماتهم. فواجهه (واجه يواكيم) روبيم قائلاً: لا يصحّ أن تقدم أنت التقدمات أولاً، لأنك لم تصنع ذرية في إسرائيل. فانكسر قلب يواكيم وحزن حزناً شديداً، وأخذ ينظر في أنساب قبائل الشعب الاثنتي عشرة قائلاً: فلأبحث في أسباط إسرائيل الاثني عشر، ألست أنا وحدي من لم يعط إسرائيل ذرية. وبحث يواكيم فوجد أن كلّ الصالحين بذروا بذورهم في إسرائيل. تذكر إبراهيم الذي وهبه الإله ابنه اسحق في آخر سني عمره. وحزّ في نفس يواكيم كثيراً، فما عاد يظهر حتى لزوجته، إذ هجر إلى البرية، وأقام هناك خيمته وصام طول أربعين نهاراً وأربعين ليلة قائلاً لنفسه: لن أخرج إلى طعام ولا إلى شراب قبل أن ينزل الرب إليّ، ولتكن الصلاة هي قوتي وشرابي.

II- أما زوجته حنّة فبكت بكاء وانتحبت نحيباً قائلة: فلأبكي ترمّلي، ولأبكي عقمي. ولكن ها قد حلّ اليوم العظيم، يوم الرب، فقالت لها خادمتها يهوديت: إلى متى ستضنين روحك؟ فها قد حلّ يوم الرب العظيم ولا يجوز البكاء بعد. هاك منديل الرأس. الذي أعطتني إياه سيدتي لقاء عملي، لأنه لا يليق بي أن أضعه، فأنا خادمة والمنديل يحمل علامة الملكات. فأجابت حنّة: إليك عنّي، فلن أفعل هذا الذي تقولين: لقد أذلني الرب. ألم يدفعك الوسواس لتأتي إلي كي ارتكب أنا الإثم أيضاً؟ فأجابت يهوديت: ولماذا عليّ أن استدرجك؟ لقد أغلق الرب رحمك كي لا تكون لك ذرية في

١- لقد ترجمت هذه النصوص عن كتاب إ. س سفينسيسكايا الذي بين يدي القارئ. وقد ترجمتها هي بدورها عن كتاب: K. Thishendorl, Evangl la Apocrupha. Lipsiae, 1853 المترجم.

٢- من غير الواضح هنا الحديث عن أي عيد ولكن من الممكن أن يكون عيد الفصح اليهودي.

إسرائيل. فتكدّرت حنّة واحترق قلبها حسرة، لكنها رمت ثياب حزنها، وزينت رأسها، وارتدت ثياب زفافها ومضت في حوالي الساعة التاسعة تتنزه في الحديقة. فرأت شجرة غار، وجلست تحتها وشرعت تصلي إلى الرب قائلة: يا إله آبائي، باركني واقبل صلاتي وتضرّعي، كما باركت سارة ومنحتها ابنها اسحق.

III- وإذا نظرت إلى فوق، رأت على الشجرة عش عصفور الدوري، فأخذت تنوح قائلة: يا ويلتاه، من الذي أنجبني؟ أي رحم أخرجني إلى الدنيا؟ لأنني صرت ملعونة في بني إسرائيل، وطردوني من معبد الرب وهم يهزؤون بي، يا ويلتاه، من أشبه أنا؟ فلا طير السماء أشبه، لأن للطيور ذرية، ربّاه. ولا المخلوقات البكماء أشبه، لأن للمخلوقات البكماء ذرية، رباه. ولا أشبه أنا حتى هذه المياه، لأن المياه تطرح ثماراً لها، رباه. الويل لي، من أشبه أنا؟ فلا أشبه أنا حتى الأرض، لأن الأرض تعطي ثمراً وتباركك، رباه.

IV- وعندئذ ظهر لها ملاك الرب وقال: حنّة، حنّة، لقد سمع الرب صلاتك، وسوف تحملين وتلدين، وسيتحدث العالم كله عن ذريتك. فقالت حنّة: حيّ هو الرب إلهي! إذا ما أنجبت ولداً أو بنتاً، فإني أعطيه إلى الرب إلهي، وسوف يخدمه طوال أيام حياته. ثم جاءها بشيران اثنان وقالا لها: زوجك يواكيم آت مع قطعانه، لأن الملاك ظهر له وبشره: يواكيم، يواكيم، لقد سمع الرب الإله صلاتك. اذهب من هنا، لأن زوجتك حنّة سوف تحمل في رحمها. ومضى يواكيم فأمر رعيانه قائلاً: هاتوا عشرة خراف سليمة لا عيب فيها وغير مبرقعة، وسوف تكون هذه للرب إلهي؛ وهاتوا اثني عشر عجلاً، وليكونوا للكهنة والشيوخ؛ ومئة جدي للشعب كله. وها هو يواكيم يدنو مع قطعانه، فرأته حنّة التي كانت واقفة عند البوابات، وأسرعت إليه تعانقه قائلة: عرفت الآن أن الرب قد باركني، لقد كنت أرملة ولم أعد الآن كذلك، وكنت عاقراً، أما الآن فسوف أحمل! ونال يواكيم السكينة في بيته في ذلك اليوم.

V- وفي الصباح حمل يواكيم تقدماته وانطلق قائلاً: إذا كان الرب قد منحني رحمته، فسوف أرى ذلك في لوح الكاهن[1]. وقدم يواكيم تقدماته ثم نظر بانتباه شديد إلى اللوح وهو يدنو من مذبح الرب، فلم ير في نفسه إثماً. فقال: الآن أعرف أن الرب تحنن عليّ وغفر لي آثامي؛ ثم خرج يواكيم من المعبد بريئاً وذهب إلى بيته. وفي أثناء ذلك كانت تمضي أشهر حنة، وفي شهرها التاسع وضعت، فسألت القابلة المولدة: من

١- لقد ورد الحديث عن اللوح الذهبي الذي يضعه رئيس الكهنة على مقدمة غطاء رأسه، في سفر الخروج، عليه رسم هيكل الرب.

ولدت؟ ولدت بنتاً، أجابتها القابلة، فقالت حنة: لقد سمت روحي في هذا اليوم، ووضعت البنت إلى جانبها. ومع مرور الأيام غادرت حنة فراش الولادة، وأعطت صدرها للطفلة، ودعتها مريم.

VI- وكانت الصغيرة تكبر وتنمو يوماً بعد يوم، ولما أتمت شهرها السادس وضعتها والدتها على الأرض لترى ما إذا كانت تستطيع أن تقف على قدميها أم لا، لكن الصغيرة خطت سبع خطوات وعادة إلى حنة. فحملتها حنّة على يديها وقالت: لن تخطو قدماك على هذه الأرض قبل أن أحملك إلى معبد الرب. وأعدوا لها في حجرة النوم مخدعاً خاصاً، وحرموا إدخال أي شيء دنس إلى هناك، ودعت حنة بنات يهوديات عذراوات طاهرات ليعتنين بالصغيرة مريم. ولمّا أتمت مريم عامها الأول أقام يواكيم وليمة كبيرة دعا إليها الكهنة، فباركوها قائلين: يا إله آبائنا بارك هذه الصغيرة وامنحها اسماً مباركاً في الأسباط كلّها. وقال الشعب: فليكن مثلما تقولون! آمين! وبعد ذلك حملها يواكيم إلى رؤساء الكهنة، فباركوها قائلين: أيها الإله الأعلى، تكرم وبارك هذه الطفلة ببركات سامية تبقى أبد الدهر. وحملت حنة طفلتها إلى المكان المقدس في حجرة نومها وأعطتها صدرها. وترنمت حنة بأغنيات تمجّد الرب وقالت: فلأسبح الرب الإله، لأنه تكرّم عليّ ودرأ عني شماتة أعدائي ووهبني ثمرة عدله، وهي الوحيدة التي لها هذا كله أمام عينيه. أما من يخبر بني روبيم أن حنة ترضع صدرها؟ اسمعوا! اسمعوا! يا أسباط إسرائيل الاثنا عشر: إن حنة ترضع صدرها!

ثم تركت طفلتها في مهدها المقدس وعادت لتخدم ضيوفها. وبعد أن انتهت الوليمة، تفرّق المدعوون مكتفين راضين يسبحون إله إسرائيل ويمجدونه.

VII- وانصرمت أشهر الصغيرة واحداً إثر الآخر إلى أن أتمت عامها الثاني. فقال يواكيم: لنحملها إلى معبد الرب لكي نوفي النذر، ولكي لا يرفضنا الرب الإله وتغدو تقدمتنا غير مرضية له. فقالت حنة: فلننتظر عامها الثالث، حتى تفتقد الطفلة والدها ووالدتها. فقال يواكيم: لننتظر. وها هي الصغيرة تتمّ عامها الثالث، فقال يواكيم: ادعي بنات يهوديات طاهرات عفيفات عذراوات، وليحملن الشمعدانات مشتعلة لكي لا تلتفت الصغيرة إلى الخلف، ولكي تحبّ معبد الرب من كلّ قلبها. وهكذا فعلوا في الطريق إلى معبد الرب. فأخذها الكاهن، وقبّلها، ومنحها البركة قائلاً: فليعظم الرب اسمك في كلّ الأسباط، لأنه سيظهر عبرك الرب في آخر الأيام لبني إسرائيل مغفرة. ثمّ

أجلسها على الدرجة الثالثة عند المذبح، ونزلت عليها غبطة الرب، فأخذت تقفز فرحة مرحة، وأحبها شعب إسرائيل كلّه.

VIII- وعاد والداها متعجبين يمجدان الرب لأن ابنتهما لم تلتفت إلى الخلف. وأقامت مريم في معبد الرب كأنها الحمامة تتلقى القوت يومياً من يدي الملاك. ولمّا أتمت الثانية عشرة من عمرها، أخذ الكهنة يتشاورون فيما بينهم، ماذا نفعل بها لكي لا تدنس المعبد بطريقة ما؟ فقالوا لرئيس الكهنة: أنت الآن واقف أمام مذبح الرب، أدخل وارفع صلاة من أجلها، وما يقوله لك الرب نفعله. وارتدى رئيس الكهنة الدوديكاكودون[1] ودخل إلى قدس الأقداس. ورفع الصلاة من أجلها، فظهر له ملاك الرب وقال: زكريا، زكريا، أمض وادع أرامل الشعب وليأت كلّ منهم بعصاه معه، ومن يظهر له الرب الآية، يأخذ مريم زوجته[2]. وانطلق المنادون ينادون، وضرب بوق الرب في شتى أنحاء اليهودية، وأخذوا يتقاطرون.

IX- فترك يوسف فأسه وجاء إلى المكان الذي تجمع فيه الآخرون. ثم ذهب المجتمعون إلى رئيس الكهنة حاملين عصيّهم. فجمع هذا العصي ودخل إلى المعبد وأخذ يصلي. وبعد أن انتهى من صلاته أخذ العصي وردها إلى أصحابها، لكن أيّ آية لم تظهر عليها. وكانت عصاة يوسف هي الأخيرة، وما أن مدّ هذا يده وأخذها حتى انطلقت منها حمامة وحطت على رأس يوسف. فقال الكاهن ليوسف: أنت المختار لتأخذ فتاة الربّ وتحافظ عليها. لكن يوسف اعترض قائلاً: لدي أولاد، وأنا عجوز وهي شابة، وأنا لا أريد أن أصبح أضحوكة عند بني إسرائيل. فقال الكاهن ليوسف: اخش الرب وتذكر كيف عاقب الرب داتان، وابيرون، وقوريا، وكيف انشقت الأرض وابتلعهم بسبب عصيانهم[3]. والآن احذر يا يوسف من أن يقع الشيء نفسه لبيتك. فخاف يوسف وأخذها ليحافظ عليها ويصونها. وقال يوسف لمريم: لقد أخذتك من معبد الرب، والآن سوف تبقين عندي في بيتي، وأنا خارج لأعمال البناء وسوف أعود إليك فيما بعد. فليحفظك الإله!

X- وكان عندئذٍ اجتماع لدى الكهنة الذين قالوا: لنصنع حجاباً لمعبد الرب. وقال رئيس الكهنة: اجمعوا عذراوات عفيفات من آل داود. فمضى الخدم يبحثون فوجدوا سبع فتيات. وتذكر رئيس الكهنة الشابة مريم التي كانت من سلالة داود، وأنها نقية أمام الإله. وذهب الخدم وجاؤوا بها. وجاؤوا بالفتيات إلى معبد الرب. فقال رئيس الكهنة:

١- زي كهنوتي خاص يرتديه رئيس الكهنة، وهو موشى باثنتي عشرة خرزة (خروج، ٢٨: ٣٣).

٢- تضيف إحدى المخطوطات جملة: «للمحافظة على عذريتها».

٣- انظر سفر العدد، ١- ٣٣.

اسكليبيدس «تأملات في الآلهة»، خرافة تقول، إن والدة أغسطس أمضت ليلة في معبد أبوللون، فحملت بابنها من الإله الذي جاءها في هيئة ثعبان. بيد أن هذه الخرافة لم تؤثر بأي حال على عرض سفيتونيوس للمشاهد الرئيسة في نشاط الإمبراطور، وهو ما تؤكد صحته مصادر موازية.

وتتمايز المنحولات ومعها ما زعمه على أساسها كتّاب مسيحيون مثل يوسيفوس، تمايزاً مبدئياً عن مؤلفات تاسيت أو سفيتونيوس. فهم لم يسهموا في ترسيخ الحالة السياسية، لأنهم لم يهتموا بالحقيقة التاريخية، لقد أنشأ هؤلاء «تاريخاً مقدساً» خاصاً بهم، وشيئاً فشيئاً تحولت قصصهم إلى واقعات راسخة: في أواخر القرن ٤م نقل يوحنا فم الذهب في «محادثة عن رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس»، لقاء بولس ونيرون على أنه حدث وقع فعلاً، وكذا الأمر بالنسبة لقصة اعتناق ساقي الإمبراطور المسيحية على يدي بولس.

وما يثير الاهتمام، هو أن الحكام الذين اعتنقوا المسيحية يظهرون حتى في المنحولات غير مرتبطين بموضوع أباطرة روما. ومن أقدم الروايات المماثلة (القرنان ٢-٣)، رواية ترتبط بشخصية تاريخية حقيقية، هو الأبجر حاكم أوسروين، الذي له حضور في تعاليم أدّاي، وكان الأبجر قد اعتنق المسيحية فور تلقيه كلمات (رسالة) يسوع. وفي قصص أخرى يعتنق الحكام المسيحية بعد أن يصدروا أوامر بإعدام الرسل: لا يتحمل هؤلاء تداعيات العقاب، وهاذ ما وقع لإيجيات في آلام الرسول أندراوس، وتحت تأثير المعجزة: ظهور الضحية عائداً من بين الأموات، يتوب هؤلاء ويندمون ثم يتوسلون المعمودية. وحسب أعمال توما الرسول، أن الملك الهندي ماسداي (اسم مختلق) اعتنق المسيحية بعد مقتل توما، إذ صنع الرماد الذي أخذ من قبر الرسول معجزة: شفى ابنه من العفريت الذي سكنه. أما في النص الإغريقي لأعمال متى الرسول، فإن ملك بلاد آكلي البشر (!)، الذي كان يطارد الرسول بتحريض من العفريت، رأى بأم عينه متّى القتيل واقفاً على المياه يسنده من الجانبين شابان مشرقان، والبحر صار صافياً شفافاً وانبثق منه صليب. عندئذٍ اندفع الملك لاهثاً إلى الأساقفة بطلب الصفح وقبوله مسيحياً. ثم ظهر متّى نفسه للملك وأمره أن يتخذ اسمه اسماً له. وبعد ذلك أصدر الملك أمراً بتحطيم الأوثان كلها، وتحول في آخر حياته إلى أسقف. ومن الواضح من غير شك أن هذا المنحول قد تجاوز أطر التاريخ، بل أطر التاريخ المزعوم أيضاً، لأنه إذا كان ثمة تقليد مسيحي راسخ عن وصول توما إلى الهند، فإن أي تقليد آخر سوى هذا المنحول لم يشر إلى وصول متى إلى هناك. ولذلك أرسلته المخيلة الشعبية إلى تلك البلاد السحرية، بعد أن اقتبست معجزات الحكايات الأخرى ولونتها وزخرفتها. وما رأى المسيحيون فيه إفراطاً في أعمال بولس وتقلا، صار مع الزمن إلى معيار.

لقد وضعت مثل هذه الحكايات على امتداد الطور الأخير من العصر القديم، ولم تعز في أثناء ذلك ملاحقات الملوك للمسيحيين إلى دوافع ذاتية لدى هؤلاء، إنما إلى تأثير قوى الشر عليهم. وفي المنحولات بات من المستحيل على أي قوة أن تواجه دعاة المسيحية. ضف إلى هذا أن مثل هذه الحتمية في اعتناق الحكام المسيحية أو حمايتها، خاصة عندما يجري الحديث عن أباطرة القرن الميلادي الأول، يعد مؤشراً على أن ما يشبه الإيديولوجيا «القيصرية» كانت قد نشأت في الأوساط الشعبية التي كانت قد تحولت منذ زمن، من مواطنين إلى رعايا: حسب تصورهم أنه كان ينبغي على كل إمبراطور أن يتحول في نهاية الأمر إلى مسيحي غيور يدافع عن الدين بحميّة.

لقد عبرت إعادة النظر في التاريخ و «تغييره» في الأدب الشعبي المنحول طريقاً طويلة على امتداد القرون الأولى لوجود الدين الجديد. فالروايات المتأخرة استغنت تماماً عن الاعتماد على أحداث حقيقية أو ممكنة، بما في ذلك الأحداث التي وصفتها الأسفار المقدسة في كتاب العهد الجديد. فقد تحايث فيها الإيمان بتعاليم يسوع المسيح والإيمان بوجود الحيوانات الناطقة من غير أن يتقاطعا في وعي جماهير المؤمنين. وعليه ليس عبثاً أن نبذ قادة الكنيسة مثل هذه الكتابات، بل هناك بعض من «التاريخ الكنسي» الذي كتبه يوسفوس القيصري رفض أيضاً. ولكن شهرة الأعمال المنحولة لم تتراجع مع انقضاء القرون، وهذا ما تؤكده كثرة المخطوطات القرسطوية. ومع أن الأعمال المنحولة قد نبذت على وجه العموم بصفتها مصادر إيمان ديني، إلا أن مشاهد معينة منها دخلت مؤلفات الكتاب والدعاة المسيحيين. فصار التاريخ عملياً، أسطورة تحكي اعتناق الشعوب والحكام للمسيحية بغمضة عين، وظهور المعجزات المستحيلة من غير انقطاع: وبقدر ما تكون هذه مغرقة في الخيال، بقدر ما يكون تأثيرها فاعلاً في أوهام المؤمنين.

ارموا قرعة الغزل: الذهب، والأميانت، والكتان، والحرير، والسنبل[1]، والأرجوان، والأرجوان الحقيقي. وكان هذان الأخيران من نصيب مريم حسب القرعة، فحملتهما ورجعت إلى البيت. وفي ذلك الوقت كان زكريا أبكم، فحلّ صموئيل محلّه إلى أن عاد إليه النطق من جديد[2]. وشرعت مريم تغزل الغزل الذي حملته معها.

XI- وحملت الجرّة وذهبت لتأتي بالماء؛ فسمعت صوتاً يقول: افرحي أيتها الممتلئة نعمة! الرب معك؛ مباركة أنت بين النساء[3]. فأخذت تنظر حولها لترى من أين يأتي الصوت. فخافت ورجعت إلى البيت وأنزلت الجرّة وحملت الغزول وأخذت تغزل. وعندئذٍ وقف ملاك الرب أمامها وخاطبها قائلاً: «لا تخافي يا مريم فقد نلت نعمة عند الرب، وسوف تحبلين بكلمته». وإذ سمعت مريم ما قاله الملاك، أطرقت قليلاً تفكر ثم قالت في نفسها: «أيعقل أن أحمل من الإله الحيّ وأنجب مثلما تنجب أي امرأة أخرى؟» وقال الملاك:: ليس هكذا يا مريم، لكن قوّة العلي تظلّلك، ولذلك سيكون المولود منك مقدساً وابن العليّ يدعى. وسوف تسمينه يسوع، لأنه سيخلص شعبه. فقالت مريم: أنا أمة الرب، ليكن لي مثلما تقول.

XII- وأنهت مريم غزل الأرجوان والأرجوان الحقيقي، وحملت النسيج إلى رئيس الكهنة. فباركها رئيس الكهنة وقال: لقد عظّم الإله اسمك، وسوف تكونين مباركة أنت لدى شعوب الأرض كلّها. ففرحت مريم وذهبت إلى قريبتها أليصابات[4]. فطرقت الباب، ولما سمعت أليصابات الطرق وضعت من يديها غزل الأرجوان وخفت إلى الباب تفتحه، وإذ رأت مريم باركتها قائلة: ما هذا الذي أعطي لي حتى تأتي أمّ سيدي إلي. لأن الراقد في أحشائي تحرّك وباركك. أما مريم التي غابت عن ذهنها الأسرار التي كشف لها جبرائيل عنها، فقد رفعت عينيها إلى السماء وقالت: من أنا يا ربي حتى تباركني الشعوب كلّها؟ وأقامت عند اليصابات ثلاثة أشهر، وفي غضون ذلك كان بطنها يكبر يوماً بعد يوم، فدبّ الرعب في قلب مريم وعادت إلى بيتها واختبأت عن أعين بني إسرائيل. لقد كانت لا تزال في السادسة عشرة من عمرها عندما تحققت هذه الأسرار.

١- هذه كلها غزول ذات ألوان مختلفة (لاحظ في سفر الخروج). كان الأرجوان الحقيقي من نصيب مريم. وكان غزلها لهما رمزاً لنسجها جسد الرب من لحم ودم.

٢- انظر لوقا.

٣- الحاشية السابقة.

٤- الحاشية السابقة.

XIII- وجاء الشهر السادس (من حملها)، وعندئذٍ عاد يوسف بعد أن أنهى أعمال نجارته، وإذا دخل إلى البيت رأى أنها حبلى. فلطم وجهه وسقط على مدّ الأرض وبكى بمرارة وألم وهو يقول: كيف انظر إلى وجهة ربي الآن، كيف سأصلي من أجل هذه الفتاة، لأني أتيت بها من المعبد عذراء وعجزت عن صون عذريتها؟ ألم يحدث لي ما حدث لآدم من قبل؟ فعندما كان آدم يمجّد (الرب)، جاء الثعبان ورأى حواء وحدها فأغواها، وهذا ما وقع لي. ونهض يوسف عن المدّ ونادى مريم وقال: أنت التي كنت في كنف الرب، فما الذي صنعته الآن ونسيت الرب إلهك؟ لماذا دنّست روحك أنت التي ترعرعت في قدس الأقداس وتناولت طعامك من يدي الملاك؟ عندئذٍ بكت مريم بأسى وقالت: إني طاهرة أنا ولم أعرف رجلاً. وقال لها يوسف: من أين إذن جاءت الثمرة إلى بطنك؟ فأجابت مريم: حيّ هو الرب إلهي، لا أعرف من أين.

XIV- فخاف يوسف وابتعد عنها وأخذ يفكر بما يصنعه معها. وقال: إذ ما أخفيت إثمها أصبحت منتهكاً الناموس، وإذا ما أخبرت بني إسرائيل، فأني أسلّم دماً بريئاً للموت. فماذا أفعل بها؟ أأصرفها سرّاً (من البيت). وحل الليل. فظهر له ملاك الرب في الحلم وقال: لا تخف بشأن الفتاة، لأن الذي فيها من الروح القدس، وسوف تلد ولداً تدعوه يسوع. لأنه يخلّص شعبه من عقاب الآثام. واستيقظ يوسف، ومجد إله إسرائيل على النعمة التي أنعم بها عليه، وأبقاها (مريم) في كنفه.

XV- وجاء إليه عندئذٍ الكتبيّ حنانيا وسأله: لماذا لم تكن حاضراً في الاجتماع؟ فأجابه يوسف: لقد كنت تعباً من الطريق وأحببت أن أستريح في اليوم الأول. فالتفت حنانيا ورأى مريم حاملاً. فأسرع إلى رئيس الكهنة وقال له: إن يوسف الذي شهدت له انتهك الناموس. وسأل رئيس الكهنة: ما الذي حصل؟ فقال حنانيا الكتبي دنس الفتاة التي أخذها من معبد الرب، وخالف عقد القران ولم يخبر بني إسرائيل بذلك. فسأل رئيس الكهنة: أهذا ما فعله يوسف؟ وأجاب حنانيا الكتبي: أرسل الخدم وسوف تعلم أنها حامل. وأرسلوا الخدم، ورآها هؤلاء كما قال، فقادوها مع يوسف إلى المحكمة. فقال رئيس الكهنة: مريم، ما الذي صنعته يا مريم؟ لماذا دنست روحك ونسيت الرب إلهك؟ أنت التي عشت في قدس الأقداس، وتلقيت القوت من يدي الملاك، واستمعت إلى الترانيم من فمه، وفرحت أمامه، لماذا فعلت هذا؟ فأجابت وهي تبكي بمرارة: حيّ هو الرب إلهي، إني طاهرة نقية ولم أعرف رجلاً. فقال رئيس الكهنة ليوسف: لما فعلت هذا يا يوسف؟ وأجاب يوسف: حيّ هو الرب إلهي، إني نقي أمامها. فقال رئيس الكهنة: لا تشهد زوراً وقل الحق. أنت انتهكت القران ولم تخبر بني إسرائيل، ولم تحن رأسك تحت يد الرب ليبارك ذريتك. فصمت يوسف.

XVI- وقال رئيس الكهنة: أعد الفتاة التي أخذتها من معبد الربّ. فبكى يوسف. عندئذ قال رئيس الكهنة: سأعطيكما لتشربا ماء إظهار الحقيقة[1] أمام الرب، وسوف يظهر الإله إثمكما أمام أعينكما، ثم أخذ (الماء) وسقى يوسف وأرسله إلى التلال، فعاد سالماً. وسقى مريم وأرسلها إلى التلال، فعادت سالمة. فتعجب الشعب من أنه لم يظهر فيهما إثم. وقال رئيس الكهنة: إذا كان الرب الإله لم يكشف إثمكما، فإني لن احاكمكما. وأطلقهما. فأخذ يوسف مريم وذهب إلى البيت وهو يمجّد الرب فرحاً.

XVII- وصدر عندئذٍ أمر القيصر أغسطس بإجراء الإحصاء في بيت لحم اليهودية. وقال يوسف: فلأسجل أسماء أبنائي. ولكن ماذا أفعل بهذه الفتاة؟ من أسجّلها؟ زوجتي؟ إنني أخجل من ذلك. ابنتي؟ لكن بني إسرائيل كلهم يعرفون أنها ليست ابنتي. فليأت يوم الرب إذن بما يريده الرب. وأجلسها على أتان قادها ابنه، ومشى يوسف خلفهما. وبعد أن قطعوا ثلاثة أميال استدار (هكذا ورد في النص الأصلي) يوسف فرأى أنها حزينة، فظن أن ثمرة بطنها هو الذي يحزنها. ومرة أخرى نظر يوسف فرأى أنها سعيدة، فسألها: ما لي أرى وجهك حزيناً تارة ومتهللاً فرحاً تارة أخرى؟ فأجابته مريم بقولها: لأني أرى بعيني شعبين، أحدهما ينتحب باكياً، والآخر فرحاً مسروراً. وقطعوا نصف الطريق، فقالت له مريم: أنزلني عن الأتان، لأن الذي في يجبرني على المشي. فأنزلها وقال: إلى أين آخذك وأخفي عارك؟ لأن المكان هنا مقفر.

XVIII- ووجد كهفاً هناك، وقادها، وأبقى أبناءه معها، ومضى هو يبحث عن قابلة في ضواحي بيت لحم[2].

وها أنذا يوسف، مشيت ولم أتحرك من مكاني. ونظرت إلى الهواء فرأيت الهواء جامداً لا يتحرك، وتطلعت إلى قبة السماء ورأيت أنها واقفة، وطيور السماء توقفت في طيرانها، والتفتّ إلى الأرض فرأيت قدراً موضوعاً وعمالاً مستلقين على مقربة منه وأيديهم حوله، ومن رفع اللقمة إلى فمه بقيت مرفوعة في مكانها، ومن همّ ليتناول شيئاً لم يتناوله، وكانت وجوه جميعهم تتطلع إلى السماء. ورأيت الأغنام التي سيقت واقفة لا تتحرّك. ورفع الراعي يده لكي يسوقها، فبقيت يده مرفوعة. ونظرت إلى تيار الماء في الأنهار فرأيت الماعز وقد لامست خياشيمها الماء، لكنها لا تشرب. ثم فجأة سار كل شيء سيره المعتاد.

١- كانت تلك عادة قديمة تسقى بموجبها المرأة المتهمة بالزنى ماء مخلوطاً بالقاذورات (انظر سفر العدد ٥: ٢٤: يسقي الكاهن المرأة «ماء مرّاً يجلب اللعنة»).

٢- في بردية بودمير لا يساق ما تبقى من النص بصيغة المتكلم. ولا يتوافق أسلوبه مع ما تبقى من السرد.

XIX- ورأيت امرأة تهبط من فوق الجبل، فسألتني: إلى أين أنت ذاهب أيها الإنسان؟ فأجبت: أبحث عن قابلة يهودية. وأجابتني سائلة: أنت من إسرائيل؟ فقلت لها: نعم. فقالت: ومن تلك التي تلد في الكهف؟ فقلت: إنها مخطوبة لي. فقالت: أليست زوجتك؟ عندئذٍ أجبتها: هذه مريم التي نشأت في معبد الرب، وصارت لي زوجة بالقرعة، لكنها ليست زوجتي، إنما حملت من الروح القدس لوجاء في بردية بودمير: ووجد امرأة نازلة من التلّ، فأخذها معه. وقالت القابلة: ومن هذه، من يلد في كهف؟ فأجابها: إنها مريم مخطوبة لي، لكنها حملت من الروح القدس بعد أن نشأت في المعبد. وذهبت الداية معه]. وقالت له القابلة: وهل هذا حق؟ فقال يوسف: اذهبي وانظري. وسارت القابلة معه. ووقفا عند الكهف، وظهرت في الكهف غيمة مضيئة أنارت جوانبه كلها. فقالت القابلة: تعظمت روحي، ورأت عيناي معجزة، لأن خلاص إسرائيل قد ولد. وعندئذٍ تراجعت الغيمة عن الكهف، فغمر الكهف نور بهر أبصارهم ولم يروا شيئاً، ومضى وقت قليل فتراجع النور وظهر المولود، خرج وأخذ صدر أمّه مريم. فأطلقت القابلة صيحة تعجب وقالت: هذا اليوم يوم عظيم بالنسبة إلي، لأني رأيت رؤية لا مثيل لها. وخرجت من الكهف. فقابلتها سالومي[1]، فقالت لها: سالومي، سالومي، أريد أن أروي لك عن ظهور معجزة: لقد وضعت الفتاة الآن وبقيت عذراء. فقالت سالومي: حيّ هو الرب إلهي، لن أصدق إلاّ إذا أدخلت إصبعي، لا أصدق أن عذراء أنجبت.

XX- ودخلت القابلة وقالت لمريم: استعدي لأن جدلاً غير قليل يدور عنك لفي بردية بودمير أن: سالومي دخلت وأعدتها (أي أعدت مريم)]. وما أن مدت سالومي إصبعها حتى صرخت قائلة: ويل لي لقلّة إيماني، لأني تجرأت على أن امتحن الإله. وها هي يدي شلّت كأنما في النار. وركعت على ركبتيها أمام الرب وقالت: أيها السيد إله آبائي، تذكر أنني من بذرة إبراهيم، واسحق، ويعقوب، فلا تذلني أمام بني إسرائيل، وارحمني إكراماً للفقراء، لأنك تعرف أنني خدمتك باسمك وأردت أن أنال منك الثواب. وعندئذٍ وقف ملاك الرب أمامها وقال لها: سالومي، سالومي، لقد قبلك الرب، فمدّي يدك إلى الطفل وامسكيه، فسوف تنالي الخلاص والغبطة. وتقدمت سالومي وأخذت الطفل بين يديها وقالت: سوف أسجد له، لأنه ولد ملك إسرائيل العظيم. وسرعان ما شفيت سالومي وخرجت من الكهف وقد بلغت الخلاص. ودوى صوت يقول: لا تخبرّي عن المعجزة التي رأيت قبل أن يدخل الطفل أورشليم.

١- يرد اسم سالومي في انجيل مرقس بين النساء اللواتي تبعن يسوع، ثم جئن بعد ذلك الى القبر (مرقس)، وهي ايضاً واحدة من مرافقات يسوع، كما جاء في منحول مرقس.

XXI- واستعد يوسف لكي يتابع طريقة إلى اليهودية. وكان في بيت لحم اليهودية في ذلك الوقت شغب كبير، لأن سحرة جاؤوا وسألوا: أين المولود ملك اليهود؟ فقد رأينا نجمه في الشرق وجئنا لكي نسجد له. ولما سمع هيرودوس قلقت روحه وأرسل خدمه خلف السحرة. وبعد ذلك دعا رؤساء الكهنة وسألهم: أين يجب أن يولد المسيح حسب الكتب؟ فأجابوه: في بيت لحم اليهودية، لأنه هكذا مكتوب، فأطلقهم. وسأل من ثم السحرة: أي آية رأيتم عن ميلاد الملك؟ فأجابوه: رأينا نجمة كبيرة تضيء بين النجوم ويطغى ضياؤها على ضياء النجوم الأخرى حتى تكاد لا ترى، وهكذا علمنا أن ملك إسرائيل قد ولد، فجئنا نسجد أمامه. فقال هيرودوس: امضوا وابحثوا، وعندما تجدوه اخبروني لكي اسجد له أنا أيضاً. ومضى السحرة [ورأوا النجوم في الشرق، وكانت هذه تتقدم أمامهم]، وسار النجم الذي رأوه في الشرق أمامهم إلى أن وصلوا إلى الكهف، فتوقف النجم هناك أمام مدخل الكهف. ورأى السحرة الطفل مع أمه مريم. ففتحوا كنوزهم وقدموا له هداياهم: ذهباً، وبخوراً، ومرّاً وأوحى إليهم الملاك ألاّ يرجعوا إلى اليهودية، فعادوا إلى بلادهم بطريق أخرى.

XXII- وحينئذٍ أدرك هيرودوس أن السحرة خدعوه، فانفجر غيظه، وأرسل الجلادين قائلاً: اقتلوا الأطفال من سن عامين فما دون، وسمعت مريم أنهم يقتلون المواليد، فدبّ في قلبها الذعر، وأخذت الطفل فلفّته بالأقمطة ووضعته في المعلف[1]. ولمّا سمعت أليصابات أنهم يبحثون عن يوحنا (ابنها)، حملته ومضت إلى الجبل. وأخذت تبحث عن مكان تخفيه فيه، لكنها لم تجد. فصرخت بصوت عال قائلة: يا جبل الإله أدخل الأم وابنها، فانشقّ الجبل وأدخلها. وأنار لهما نور، وكان ملاك الرب معهما يحرسهما.

XXII- وفي تلك الأثناء كان هيرودوس يفتش عن يوحنا، وأرسل خدمه إلى زكريا يسأل: أين خبأت ابنك؟ فأجاب زكريا: أنا خادم الرب، أقيم في المعبد ولا أعرف أين ابني. فعاد الخدم ونقلوا كلام زكريا إلى هيرودوس. وقال هيرودوس في ثورة غضبه: ابنه سوف يكون ملك

١- هنا تنتهي قصة ماريا. لقد تداخلت في المشهد الأخير خرافات مولد يسوع في كهف مع قصة لوقا عن مولده في معلف الحيوانات. وزيد على هذا في المخطوط C- «... فزعة حملت المولود ومضت إلى مصر»؛ وأضيف إلى هذا في المخطوط A: «... مع يوسف». وجاء في المخطوط F: «وعزم هيرودوس على أن يجد الطفل ليقتله. وجاءت يوسف في الحلم آية، فأخذ الطفل وأمه وتوجه إلى مصر، لكي يتحقق قول النبي: «من مصر أدعو ابني». وقد وضعت هذه الإضافات بهدف موافقة قصة إنجيل يعقوب المنحول مع قصة إنجيل متّى عن فرار العائلة المقدسة إلى مصر. ولكن النص الأصلي لمنحول يعقوب مرتبط أكثر بإنجيل لوقا الذي لم يأت على ذكر قصة الفرار إلى مصر.

إسرائيل[1]. ورد إليه خدمه ثانية فقالوا: قل الحق، أين ابنك، واعلم أن حياتك بين يدي. فأجاب زكريا: إني شاهد الرب، وإذا سفكت دمي فسوف يتقبل الرب روحي، لأنك تسفك دماً بريئاً أمام المعبد. وقبيل الغسق قتل زكريا، ولم يعرف بنو إسرائيل أنهم قتلوه.

XXIV- وفي أثناء (طقس) التقبيل اجتمع الكهنة، لكن زكريا لم يستقبلهم مباركاً كما جرت العادة. ووقف الكهنة ينتظرون زكريا ليؤدي الصلاة ويمجد العلي. وبما أنه لم يظهر فقد أخذ الخوف الحاضرين. وتشجع أحدهم ودخل (إلى المعبد)، فرأى دماء متخثرة عند المذبح، وسمع صوتاً يقول: قتل زكريا، ولن يزال دمه قبل التأثر له. وارتعد الكاهن فزعاً إذ سمع تلك الكلمات، فخرج وروى على الحاضرين ما سمع. فقرروا أن يدخلوا، ورأوا الذي حصل، فتصايحوا، وشق الكهنة ثيابهم، لكنهم لم يجدوا جثته، فقط دماءه المتحجرة. فلفّهم الفزع وخرجوا وأعلنوا للشعب أن زكريا قتل. وسمعت أسباط الشعب كلها بمقتل زكريا، فبكوه وناحوا وندبوا ثلاثة أيام بلياليها. وبعد ثلاثة أيام أخذ الكهنة يتشاورون عمن سيضعون بدلاً منه، فوقعت القرعة على سمعان. وكان الروح القدس قد بشر بذلك، وقيل له إنه لن يموت قبل أن يرى المسيح الحي[2].

XXV- وأنا يعقوب الذي كتب هذه القصة في زمن الشغب، اختبأت في البرية إلى أن مات هيرودوس[3]، وهذا الشغب في أورشليم[4]. أمجّد الرب الإله الذي وهبني الحكمة لأصف هذا فلتعمّ غبطته على جميع الذين يخافون ربنا وإلهنا يسوع المسيح، المجد له في كلّ الدهور. آمين.

١- يبين زعم هيرودوس أن يوحنا سوف يكون ملك إسرائيل، أي موسى، أن مقطع أليصابات وزكريا هذا كله، قد جيء به من قصة أخرى لم تكن ترتبط في الأول بقصة يسوع ومريم، وأنه من صنع أنصار يوحنا المعمدان كما يرتبط إدخال أليصابات وزكريا في منحول يعقوب بإنجيل لوقا أيضاً، حيث يرد ذكرهما معاً لكن من غير أي صلة بمجزرة الأطفال.

٢- إن الهدف من إدخال قصة سمعان الذي انتخب رئيساً للكهنة، هو إقامة صلة بين هذه الرواية وقصة يسوع: لقد تحدث إنجيل لوقا عن العجوز سمعان (لكنه لم يكن هنا رئيس الكهنة)، الذي قالت النبوءة له، إنه لن يموت قبل أن يرى المسيح.

٣- ليس واضحاً لماذا كان يجب على يعقوب أن ينتظر موت هيرودوس، فالرواية المسيحية تقول، إن الملك هيرودوس لاحق الأطفال، وليس الكبار.

٤- ليس واضحاً عن أي شغب يجري الحديث هنا، ربما عن ذكريات الانتفاضة التي اشتعلت في فلسطين ضد الرومان بعد موت هيرودوس، بيد أن المؤلف يتحدث عن شغب في حياة هيرودوس؛ وعلى أي حال يصعب كثيراً البحث عن الحقيقية التاريخية في المنحولات.

قصة توما الإسرائيلي الفيلسوف
عـن طفولة المسيح

(الرواية A)

I- أنا توما الإسرائيلي أروي لكي تعرفوا يا أخوتي الذين بين الوثنيين، كلّ أحداث طفولة ربنا يسوع المسيح وأعماله العظيمة التي صنعها بعد أن ولد في بلادنا. وكانت البداية هكذا.

II- عندما كان يسوع الصغير في الخامسة من عمره، كان يلهو يوماً عند المخاضة وراء الجدول، فجمع الماء الجاري في بركة، وجعله نقياً وسيره بكلمة واحدة منه. وبلّل طيناً وعجن اثني عشر عصفور دوري. وكان السبت عندما فعل هذا. وكان كثير من الصغار يلهون معه هناك. ولكن عندما رأى أحد اليهود ما كان يفعله يسوع من لهو في يوم السبت، ذهب من توّه وأخبر والده يوسف قائلاً: انظر، إن ولدك عند المخاضة، وقد أخذ طيناً وصنع طيوراً، وخالف السبت. وعندما جاء يوسف إلى المكان ورأى، نهره بصوت عال قائلاً: لماذا تفعل في السبت ما لا يجب فعله؟! لكن يسوع ضرب كفاً بكف وصاح بالعصافير الطينية. قائلاً: طيري! فطارت جذلى. وتعجب اليهود إذ رأوا ذلك، ومضوا وأخبروا الشيوخ (أوائلهم) بما رأوه، وكيف فعل يسوع ما قلناه هنا.

III- لكن ابن حنانيا الكتبي كان واقفاً هناك قرب يوسف، فأخذ غصن صفصاف وبدّد الماء الذي كان يسوع جمعه. ولما رأى يسوع ما فعله هذا، غضب وقال له: أنت، أيها الذي لا نفع منه، أيها الغبي الذي لا يعرف الإله، ما الذي فعلته لك البركة والماء؟ انظر، فسوف تجفّ أنت الآن وتيبس كالشجرة، ولن تكون لك أوراق ولا جذور ولا ثمار. وفي اللحظة عينها جفّ الصغير، أما يسوع فقد ذهب ودخل إلى بيت يوسف.

وحمل والدا ذلك الصغير ابنهم ومضيا يندبان شبابه، وجاءا به إلى يوسف يلومانه لأن ابنه يصنع هذا!

IV- وسار بعد ذلك في القرية، فدنا منه صغير ودفعه من كتفه. فغضب يسوع وقال له: لن تخطو بعد الآن خطوة واحدة إلى الأمام، فسقط الولد ميتاً في اللحظة. وقال من رأى ذلك: من الذي أنجب ذلك الولد حتى تتحقق كلّ كلمة يقولها. وجاء والدا الولد الميت إلى يوسف ووبخاه قائلين: طالما عندك هكذا ابن فأنت لا تستطيع أن تعيش معنا، أو عليك أن تعلمه كيف يبارك، بدلاً من أن يلعن، لأن أطفالنا يهلكون.

V- ودعا يوسف الولد ووبخه قائلاً: لماذا تصنع ما يؤلم الناس ويجعلهم يكرهوننا ويلاحقوننا؟ فقال يسوع: أنا أعرف أنك تقول قول الآخرين، ولكنني من أجلك سوف أصمت، لكن عليهم أن ينالوا العقاب. وفي اللحظة عينها فقد الذين كانوا حوله البصر. والذين رأوا ذلك دبّ الذعر في نفوسهم، وارتبكوا وقالوا عنه: كلّ كلمة يقولها، طيبة أو شريرة، هي فعل وتتحول إلى معجزة. ولما رأى يوسف ما فعله يسوع، قام إليه فأمسك بأذنه وشدّه بقوة. فغضب الولد وقال: يكفيك أنت أن تبحث ولا تجد، وأنت تتصرف كالحمقى[1]. أفلا تعرف أني لا أنتمي إليك؟ فلا تسبب لي الألم.

VI- وها هو أحد المعلمين الذين يدعونه زكّا، كان يقف غير بعيد، وسمع كيف قال يسوع هذا لوالده، فتعجب أشد العجب من أن يقول طفل صغير مثل هذا القول. فجاء بعد أيام إلى يوسف وقال له: عندك ابن فطن يعقل. فهاته لي لكي أعلمه الحروف، ومع الحروف سأعلمه المعرفة كلّها، وكيف يسلّم على الكبار ويحترمهم كآباء وأجداد، وكيف يحب أترابه الذين هم من سنه. وأراه كلّ الحروف واضحة من الألفا إلى الأوميغا، وسأله كثيراً من الأسئلة. ونظر (يسوع) إلى المعلم زكّا وسأله: كيف تستطيع أنت الذي لا تعرف ماذا يعني الألفا أن تعلم الآخرين ماذا يعني البيتا. منافقٌ! في الأول علم إذا كنت تعرف، معنى الألفا، وعندئذ سوف نثق بك بخصوص البيتا. ثم

١- وجاء في الرواية السلافية: «يكفيك أن تبحث عني ولا تجدني، لأنك لا تعرف الحقيقة، فهل انتمي انا اليك...». وفي شتى التنويعات تردد كلمات يسوع أصداء القول الذي ورد في إنجيل توما الذي عثر عليه في مصر مكتوباً باللغة القبطية: «قال يسوع: فليبحث الذي يبحث من غير توقف، إلى أن يجد، وعندما يجد، فسوف يأخذه الذهول...» (توما). ويكمن مغزى كلمات إنجيل الطفولة في أن يسوع يتهم يوسف بأنه لا يبحث عن الحقيقة.

أخذ يسأل المعلم عن الحرف الأول، ولم يستطع هذا أن يجيبه. وحينئذٍ قال الصغير لزكّا على مسمع كثير من الحاضرين: اسمع يا معلم، انتبه إلى تركيب الحرف الأول، إلى الخطوط التي يتألف منها والشرطة التي في وسطه تخترق زوجاً من الخطوط، وهما كما ترى يتلاقيان ويتباعدان، يصعدان، ويدوران، ثلاث علامات للصفة عينها مرتبطة وتدعم واحدتها الأخرى، وذات قياس واحد. تلك هي خطوط الألفا[1].

VII- ولما سمع المعلّم زكّا عن كثرة الرموز المنعكسة في كتابة الحرف الأول، أصابه ذهول، وما زاد حالته ذهولاً أن الصغير يملك معرفة عظيمة جداً، فقال لمن كان حاضراً: الويل لي، أنا في حيرة وارتباك، لقد جلبت العار لنفسي عندما دعوت هذا الصغير إلي. خذه اللحظة، أرجوك يا أخي يوسف. فأنا لا أستطيع أن أتحمل صرامة نظرته، وأنا لم أستطع أن أفهم كلامه أبداً. ليس هذا الطفل مولوداً ولادة بشرية، فإن بمقدوره أن يروّض النار. وربما كان مولوداً قبل خلق العالم. وأنا لا أعرف أيّ بطن حملته، وأي صدر أرضعه. الويل لي، لقد دمّرني، ولا أستطيع أن أدرك أفكاره. لقد خُدعت، أنا التاعس ثلاثاً، أردت أن أحصل على تلميذ، فجاءني معلّم. إني أفكر في عاري، يا أصدقائي، لقد تفوّق عليّ أنا العجوز طفل صغير. لم يبق لي سوى اليأس والموت بسبب هذا الصغير، فأنا لا أستطيع أن أنظر في وجهه. وعندما سيقول جميعهم كيف استطاع ولد صغير أن يتغلب عليّ، فما الذي يمكنني أن أقوله؟ وماذا يمكنني أن أقول عن خطوط الحرف الأول، عمّا تحدث هو عنه؟ أنا لا أعرف يا أصدقائي، لأني لا أرى البداية ولا أرى النهاية. ولهذا أرجوك يا أخي يوسف، خذه معك إلى البيت فربما يكون عظيماً من العظماء، إلهاً ملاكاً، أو أحداً لا قِبل بفهمه.

١- من الواضح أن الوصف المعطى هنا هو للحرف الإغريقي A. وابتداء من القرن ٢ م باتت الشرطة الوسطى ترسم منحنية.

وحسب شهادة إيرينيوس، إن الغنوصيين أتباع المدعو مرقس (مرقسيان) هم الذين اشتغلوا في تأويل المغزى المكنون للأحرف والأرقام وثمة قصة لدى إيرينيوس (ضد الهرطقات) عن المدرسة تقول: «ويقبلون في غضون ذلك أيضاً الرواية التي تزعم أن الرب بينما كان يتعلم في صباه مبادئ القراءة والكتابة، قال له المعلم كما جرت العادة: قل ألفا، فقال: ألفا. ثم عندما قال له: قل بيتا، أجابه الرب: قل لي أولاً ماذا تعني ألفا، وأنا سأقول لك بيتا. ويفسرون ذلك بأنه وحده فقط يعرف المكنون الذي أشار إليه في صورة الألفا».

VIII[1]- وإذ هدأ اليهود من روع زكّا، ضحك الصغير ضحكاً عالياً وقال: «والآن فليثمر ما هو لك ثمراً، وليبصر من في قلبه عمى[2]. لقد جئت من فوق لكي ألعنهم وأدعوهم إلى العليّ، كما أمرني الذي أرسلني من أجلكم». ولمّا أنهى الطفل كلامه، اختفى في اللحظة كلّ من آذاه قوله. ولم يجرؤ أحد بعد ذلك على أن يعارضه لكي لا تحلّ عليه اللعنة أو يبتلى ببلية.

IX- وبعد أيام كان يسوع يلهو على سطح البيت، فسقط واحد من الصغار الذين كانوا يلعبون معه من فوق السطح ومات. ولما رأى الصغار الآخرون ما حصل تفرقوا هرباً، فبقي يسوع وحده. وجاء والد الصغير الميت وأخذوا يتهمون يسوع بأنه هو الذي دفع ابنهم من فوق السطح. فأجاب يسوع قائلاً: أنا لم أدفعه. لكنهم لم يكفوا عن اتهامه. عندئذٍ نزل يسوع عن السطح، ووقف قرب جثمان الصغير وصاح بأعلى صوته: زينون (وهو اسم الطفل)، قم واخبرهم ما إذا كنت أنا قد دفعتك أم لا؟ فقام الطفل من توّه وقال: لا يا رب أنت لم ترمني، لكنك أقمتني. وإذ رأوا ذلك أصابهم الذهول. فمجد والد الطفل المعجزة التي حصلت وسجدوا ليسوع.

X- وبعد أيام كان أحد الفتيان يقطع الحطب في الجوار، فسقطت الفأس من بين يديه وقطعت له قدمه، فنزف دمه إلى درجة الموت تماماً. ولما تعالى الصراخ واجتمع الناس، جاء يسوع إلى هناك أيضاً، وفي اللحظة عينها شفى قدم الشاب. وقال له: انهض الآن وواصل القطع، وتذكرني. وحينما رأى الحشد ما حدث سجدوا ليسوع قائلين: حقاً إن روح الإله تسكن هذا الولد.

XI- ولما كان له ست سنوات بعد مولده، أعطته والدته الجرّة وأرسلته ليأتي بالماء. لكنه اصطدم في الزحام وكسر الجرّة. فربط يسوع رداءه وملأه ماء وحمله إلى والدته. وإذ رأت والدته ما فعل قبلته وحفظت في قلبها المعجزة التي رأتها منه.

XI- ومرة في موسم البذار ذهب الصغير مع والده ليبذر الحنطة في الحقل. وبينما الوالد يبذر، زرع يسوع بدوره حبة حنطة واحدة. ولمّا حصدها وذرّاها، أعطت مئة مير[3]، فدعا فقراء

١- بين الفصل السابع والفصل الثامن من المخطوط الباريسي لهذا المنحول، هناك مقطع قصة المصبغة الذي يردد صدى الفصل ٣٨ من إنجيل الطفولة العربي: «بينما يسوع يمشي رأى ورشة وشاباً يصبغ في الدنّ أردية ومنسوجات بألوان مختلفة، كلّ قطعة على حدة وعندما دنا يسوع الصغير (ورأى؟) كيف يفعل الشاب، أخذ هو المنسوجات الموجودة حوله. وتحضر في إنجيل فيليبوس أيضاً صورة يسوع في المصبغة: «دخل الرب مصبغة لاوي وأخذ اثنين وسبعين لونا ورمى بها في الدنّ ثم أخذها من الدن بيضاء كلّها وقال: مثل هذا حقاً جاء ابن الإنسان صباغاً».

٢- لقد جاء في إنجيل الطفولة السلافي: «فليطرح العاقر ثمراً، وليبصر الأعمى، وليسمع الأصمّ بقلبه، لقد أتيت من فوق لكي أخلص أولئك الذين تحت وأدعوهم إلى فوق، كما أمرني ذاك الذي أرسلني».

٣- منة مير، وفي النص الإغريقي «منة كور»؛ وكان الكور يساوي حوالي ٣١٢ إلى ٥٢٠ ليتراً. وتردد هذه القصة أصداء كلمات يسوع التي جاءت في إنجيل توما الغنوصي: «قال يسوع: ها هو الزارع قد خرج، فملأ يده، ونثر (الحبوب).. وأخرى سقطت في أرض طيبة.. منة وعشرين ميراً لكلّ منها» (توما)، انظر متى.

القرية كلهم إلى البيدر ووزّع الحنطة عليهم، أما يوسف فقد أخذ بقايا الحبوب. كان له من العمر ثماني سنوات عندما صنع هذه المعجزة.

XIII- لقد كان والده نجاراً، وكان يصنع في ذلك الوقت المحاريث والنيار. وطلب منه غني أن يصنع له سريراً. ولمّا ظهر أن إحدى العارضتين أقصر من الأخرى، ووقف يوسف عاجزاً عن فعل أي شيء، قال يسوع الصغير لوالده يوسف: ضع خشبتين بعضهما إلى جانب بعض وسوّهما من الوسط إلى إحدى النهايتين. وعندما فعل يوسف ما قال له الصبي، وقف يسوع عند النهاية الأخرى وأخذ العارضة القصيرة وشدّها إلى أن ساوت الأخرى. ورأى والده يوسف ذلك وتعجّب، فحضنه وقبّله قائلاً: إني سعيد لأن الإله منحني هكذا ابن.

XIV- ولمّا رأى يوسف رجاحة عقل الصغير، وأنه نما وها هو يصل سن البلوغ بعد قليل، عزم من جديد على ضرورة تعليم الصبي مبادئ القراءة والكتابة. فقاده إلى معلم آخر. وقال المعلم ليوسف: سوف أعلّمه الأبجدية الإغريقية أولاً، وبعد ذلك اليهودية، لأنه كان على علم بفطنة الصبي وكان يخشاه. وكتب المعلم الأبجدية وسأل فيها طويلاً. لكنه لم يعط إجابة. فقال يسوع للمعلم: إذا كنت معلماً حقاً وتعرف الحروف معرفة جيدة، قل لي ماذا يعني الحرف ألفا، وأنا سأقول لك ماذا يعني الحرف بيتا. فغضب المعلّم وضربه على رأسه. فأحس الصغير بالألم ولعنه، فسقط هذا على الأرض من غير نفس، وعاد الولد إلى بيت يوسف. وحزن يوسف وقال لأمه: لا تدعيه يخرج من باب البيت، لأن كلّ من يثير غضبه يموت.

XV- وبعد وقت قال معلم آخر صديق ليوسف، قال له: هات الصبي إليّ في المدرسة. فقد أستطيع إقناعه بأن يتعلم الحروف. فقال له يوسف: إذا كنت قد عزمت أمرك يا أخي فخذه معك. وأخذه هذا بخشية وقلق، لكنّ الصغير سار برغبة أكيدة. ودخل البيت الذي فيه المدرسة بسكينة، فوجد كتاباً فوق المصطبة، فأخذه، لكنه لم يقرأ أحرف الأبجدية فيه. وفتح فمه وشرع يتحدث عن الروح القدس ويعلم الذين كانوا حوله. وتجمع هناك حشد كبير أدهشته غبطة تعاليمه وحكمة كلماته على الرغم من صغر سنّه. وإذ سمع يوسف بما يجري، أخذه الفزع وهرع إلى المدرسة خوفاً من ألاّ يتمكن هذا المعلم أيضاً من السيطرة على الصبي. لكن المعلم قال ليوسف: أتعرف يا أخي، لقد أخذت الصبي كتلميذ، لكنه مليء غبطة وحكمة، والآن أنا أرجوك يا أخي، خذه إلى بيتك. وحين سمع الصغير هذا تعالى ضحكه وقال: لأنك قلت وشهدت بالحق، فلأجلك أنت يبرأ من أصيب. وفي اللحظة عينها شفي المعلّم الآخر. وأخذ يوسف الطفل إلى البيت.

XVI- وحدث يوماً أن أرسل يوسف ابنه يعقوب ليأتيه برزمة من الخشب. فذهب يسوع معه. وبينما كان يعقوب يجمع الحطب اليابس لدغته أفعى بيده. ولمّا سقط مستلقياً على ظهره وكان قريباً من الموت، اقترب يسوع منه ومسّ نفسه مكان اللدغة، توقف الألم في اللحظة، وانفقأ الدمّل، وعاد يعقوب سليماً معافى.

XVII- وبعد ذلك توفى طفل مريض لدى أحد جيران يوسف، فبكته أمّه بمرارة. فسمع يسوع النواح والعويل وخفّ إلى المكان مسرعاً، فرأى الطفل الميت، فلمس صدره وقال: «أنا أقول لك: لا تمت، بل عش وكن مع أمك»[1]. وفي اللحظة عينها فتح الصغير عينه وابتسم. ثم قال للمرأة: خذيه واسقه الحليب وتذكريني. ولما رأى الحاضرون ما حصل قالوا: حقاً إن هذا الصغير إله، أو ملاك إلهي، لأن كل كلمة يقولها تصير إلى فعل. وترك يسوع المكان ومضى يلهو مع أترابه.

XVIII- ومرّة كانوا يبنون بيتاً، فحدث انهيار، وقام يسوع ومضى إلى هناك فرأى أن رجلاً مطروحاً ميتاً، فأمسكه من يده وقال: أقول لك أيها الإنسان انهض واعمل عملك. ونهض هذا فوراً وسجد له. فبهت الحضور وقالوا: إن هذا الطفل من السماء لأنه أنقذ نفوساً كثيرة من الموت وسوف ينقذهم طوال عمره.

XIX- وعندما كان في الثانية عشرة جاء والداه حسب المعتاد إلى أورشليم للمشاركة في عيد الفصح مع آخرين. ولما ساروا بعد انتهاء العيد إلى الديار، عاد يسوع أدراجه إلى أورشليم، أما والداه فقد ظنّا أنه يسير مع الجمع. وبعد أن قطعوا مسير يوم، أخذ والداه يبحثان عنه بين الأقارب والمعارف، ولما لم يجداه عادا إلى أورشليم. وبعد بحث دام ثلاثة أيام وجداه في المعبد جالساً بين المعلمين يستمع إلى الناموس ويسألهم. وكان جميعهم ينصت إليه باهتمام، وتعجبوا كيف استطاع وهو الطفل الصغير أن يرغم الشيوخ ومعلمي الشعب على أن يصمتوا ويستمعوا إليه وهو يشرح الناموس وأقوال الأنبياء. فقالت له أمه: يا بني! ما الذي فعلته بنا؟ ها هو أبوك وأنا بحثنا عنك بفزع وقلق. ولماذا كان عليكما أن تبحثا عني؟ أم أنكما لا تعرفان أنه ينبغي لي أن أكون فيما هو لأبي. أما الكتبيون والفريسيون فقالوا: أأنت والدة هذا الولد.؟ فقالت: نعم. فقالوا: مباركة أنت بين النساء، لأن الرب بارك ثمرة بطنك. فإننا لم نر أبداً ولم نسمع مثل هذا المجد، ومثل هذه الجرأة، ومثل هذه الحكمة. ونهض يسوع وسار مع أمه، وكان مطيعاً لوالديه. وحفظت أمّه كلّ الكلام في قلبها. لقد كان يسوع قد تفوق في الحكمة، والعمر، والغبطة. المجد له في دهر الدهور. آمين.

١- انظر لوقا.

كتاب القديس
توما الرسول عن طفولة الرب

(الرواية B)

I- لقد رأيت أنا، توما الإسرائيلي، إنه من الضروري أن أعلم أخوتي من الوثنيين بالأعمال التي صنعها في طفولته ربنا يسوع المسيح، الذي مكث جسدياً في مدينة الناصرة في سن الخمس سنوات.

II- وخرج يوماً بعد أن توقف المطر، ولم تكن والدته في البيت، كانت تعمل في الحقل، ووصل إلى المياه الجارية، فحفر حفراً وساق الماء إليها حتى ملأها. وقال عندئذٍ: «أريد أن يصفوا هذا الماء ويغدو رقراقاً». فتحققت رغبته فوراً. وعلى مقربة منه مرّ ابن حنانيا، فضرب الماء بعود الصفصاف وبدده. فالتفت إليه يسوع وقال: «أنت، أيها الكافر المجرم، بماذا آذتك هذه البرك حتى جعلتها خالية؟ لن تكمل طريقك الذي أنت فيه، وستجف كهذا العود الذي في يدك». فسقط الولد ميتاً في مكانه. ولما رأى الأولاد الآخرون الذين كانوا يلهون مع يسوع ذلك، ذهلوا وفروا هاربين من المكان، وأخبروا والد الميت. فخف هذا إلى المكان ورأى ابنه ميتاً فذهب إلى يوسف يشكو.

III- أما يسوع فقد عجن من ذلك الوحل اثني عشر عصفوراً دورياً. وذلك في يوم السبت. فجاء أحد الصغار إلى يوسف وقال له: «لقد رأيت ابنك يلهو عند المسيل، يصنع من الوحل عصافير، وليس هذا مسموحاً». وإذ سمع يوسف هذا ذهب إلى يسوع وقال له: «لماذا تفعل ما يخالف السبت»؟ فلم يجبه يسوع، لكنه حدق في العصافير وصاح: «طيري واذكريني حياً» وفوراً حسب كلمته طارت العصافير في الهواء. ولما رأى يوسف هذا أخذته الدهشة.

IV- وبعد أيام، بينما كان يسوع في المدينة، رماه صبي بحجر أصاب كتفه. فقال له يسوع: «لن تكمل طريقك»، وفي الحال سقط الصغير ميتاً. وقال الذين كانوا هناك فيما بينهم، وقد أصابهم الذهول: ما هذا الولد الذي تصير كلّ كلمة ينطق بها إلى فعل... ومضوا إلى يوسف يلومونه قائلين: «لا يمكنكم أن تعيشوا معنا في المدينة. وإذا أردت (أن تبقى)، فعلم ابنك أن يبارك لا أن يلعن. لأن أطفالنا يهلكون، فكل ما ينطق به يتحقق».

V- فقام يوسف من مقعده، ووضع الصبي وأمسكه من أذنه بقوة. فنظر إليه يسوع نظرة حادة وقال: «كفاك هذا».

وفي اليوم التالي أخذه يوسف من يده وسار به إلى معلم يدعى زكّا وقال له: «خذ هذا الصبي يا معلم، وعلمه القراءة والكتابة». فأجابه المعلم: «أعطني إياه وأنا سأعلمه الكتابة، وسوف أقنعه بأن يبارك لا أن يلعن». فضحك يسوع وقال: «أنتما تتحدّثان عمّا تريانه، أما أنا فأعرف أكثر منكما بكثير. لأني أنا هذا موجود قبل الأزل. وأنا رأيت عندما ولد آباء آبائكما، وأعرف كم عدد سني حياتكما». وإذ سمع المعلم هذا أصابه الارتباك. ثم قال لهما يسوع: «أنتما في عجب من كوني أعرف كم من السنين سوف تعيشان. حقاً إنني أعرف متى خلق العالم. وأرى أنكما الآن لا تصدقان ولكن عندما تريان صليبي[1]، فستصدقان أنني أقول الحق». فدهشا لما سمعا منه.

وبعد أن كتب زكّا الأبجدية اليهودية قال له: «ألفا»[2]. فردد الصغير وراءه قائلاً: ألفا. ومرة أخرى قال المعلم: ألفا، فردد الصغير ثانية الحرف عينه، وفي المرّة الثالثة قال المعلم: ألفا. عندئذٍ التفت يسوع إليه وقال: «أنت لا تعرف ماذا يعني حرف الألفا، فكيف يمكنك إذن أن تعلم البيتا»؟ وبدأ الصغير يقرأ من الألفا حتى أتى على حروف الأبجدية الاثنين والعشرين[3]. ثم قال: «اسمع يا معلم عن بنية الحرف الأول واعلم ما فيه من توافق وخطوط وعلامات تتقارب وتتباعد. وإذ سمع زكّا هذا الكلام عن حرف واحد، أخذته

١- المقصود هنا، هو الصليب لا بصفته رمزاً لصلب يسوع إنما رمز لقيامته، والأصح رمز عودته إلى أبيه (وهذا ما اتسمت به رؤى الغنوصيين. فقد جاء في إنجيل الحقيقة الذي عثر عليه في مكتبة الغنوصيين في مصر، ان يسوع سمّر على الخشب وصار ثمرة لمعرفة ابيه).

٢- الألفا وكذلك البيتا من احرف الأبجدية الإغريقية وليس الأبجدية اليهودية. يبدو أن من وضعوا إنجيل الطفولة لم يكونوا على معرفة بما كانوا يعلّمونه في مدن صغيرة كالناصرة.

٣- تتألف الأبجدية اليهودية من ٢٢ حرفاً، وتتألف الالفباء الإغريقية من ٢٤ حرفاً. وثمة خلط بين الأبجديتين هنا.

الحيرة وعجز من إجابته. فالتفت إلى يوسف وقال له: «يا أخي، إن هذا الطفل ليس مولوداً، فخذه عني».

وحدث مرة بعد ذلك أن كان يسوع يلهو مع أترابه فوق سطح المنزل. فسقط أحدهم من فوق السطح ومات. ولمّا رأى الأطفال الآخرون ما وقع، فرّوا هاربين وبقي يسوع وحده واقفاً على السطح. وما إن علم والدا الصبي بما وقع له، حتى جاءا يندبان ويولولان. ولما رأيا جثمان ولدهما الملقى على الأرض ويسوع الواقف على السطح، أخذ يتهمانه بأنه هو من دفعه، وشرعا يشتمانه. عندئذٍ نزل يسوع عن السطح، ووقف عند رأس الميت وقال: «زينون أهل حقاً أنا دفعتك؟ قم وقل». فقام الصغير في الحال وسجد ليسوع وقال: «يا رب، أنت لم ترمني، بل أحييتني».

ولم تمرّ أيام قليلة حتى قطع جار لهم قدمه بالفأس بينما كان يقطع الحطب. ونزفت دماؤه حتى كاد أن يموت. فتجمع في المكان حشد كبير، وكان يسوع بين الحضور. فدنا ولمس جرح الشاب فبرأ في الحال، وقال له: «انهض وقطع حطبك». فنهض الشاب وسجد وشكر يسوع وواصل عمله. وشكره الحاضرون والدهشة بادية على وجوههم.

وعندما كان في السادسة من عمره أرسلته أمه مريم ليجلب الماء من النبع. لكن جرته انكسرت في الطريق فوصل إلى النبع، وعقد رداءه وملأه ماء وحمله وعاد إلى مريم. ولمّا رأت ذلك بهتت، فاحتضنته وقبلته.

وكان في الثامنة من عمره عندما تلقى يوسف طلباً من أحد الأثرياء أن يصنع له سريراً. لأن يوسف كان نجاراً. وعندما خرج إلى خارج المدينة ليجمع الخشب اللازم، ذهب يسوع معه. فقطع يوسف عارضتين ووضعهما على الأرض لكي يقيسهما، وتبين له أن واحدة منهما أقصر من الأخرى. فتأفف وأخذ يبحث عن عارضة أخرى مناسبة. وإذ رأى يسوع ذلك قال له: ضع هذين اللوحين واحدهما إلى جانب الآخر ووازهما عند النهاية السفلى». ومع أن يوسف لم يدرك ما كان يريده الصغير، إلا أنه فعل ما قاله له. وعندئذٍ قال له يسوع: «شدّ اللوح الصغير بكل قوتك». فتعجب يوسف وأمسك باللوح. ثم أمسك يسوع بالطرف المقابل من اللوح عينه وشدّه إلى أن ساوى طرف اللوح الآخر. وهكذا تساوى اللوحان طولاً، وقال ليوسف: «لا تقلق بعد الآن وأكمل عملك بسلام». فأخذ الذهول بيوسف كلّ مأخذ وقال: «مغبوط أنا لأن الإله منحني مثل هذا الابن». ولما رجعا إلى المدينة روى يوسف لأم يسوع كل ما جرى. وبعد أن استمعت ورأت أعمال ولدها العظيمة غير العادية فرحت وباركته مع أبيه والروح القدس، الآن وكلّ أوان وإلى دهر الداهرين آمين.